﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الذاريات: 47 - 49]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

إعـادةُ الأشياء الفانية بالنِّسبة إلى خلق السَّماء أمرٌ يسيرٌ

قال ابن عاشور: "لمّا كانت شُبْهَةُ نُفاة البعث قائمةً على تَوَهُّم استحالة إعادة الأجسام بعد فنائها؛ أعقَب تهديدَهم بما يُقَوِّض تَوَهُّمَهم، فَوُجِّهَ إليه الخطاب يُذكِّرُهم بأنَّ الله خلَق أعظمَ المخلوقات، ولم تكُن شيئًا، فلا تُعَدُّ إعادةُ الأشياء الفانية بالنِّسبة إليها إلّا شيئًا يسيرًا، كما قال تعالى: ﴿لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [غافر: 57]"[1].

ومِن أوجه التَّناسُبِ أيضًا: أنَّ السّورة الكريمةَ لمّا ساقَت جانبًا من قصص الأنبياء؛ ليكون في ذلك تسليةٌ للنَّبيِّ ﷺ وتذكرةٌ للمُتَذكِّرين؛ جاء الحديثُ عَن مظاهِرِ قدرة الله تعالى، وسعَةِ رحمتِه، ووافر نِعَمه، وحضِّ النّاس على شُكْرِه تعالى وطاعَتِه[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بَنَيۡنَٰهَا﴾: أصلُ (بني) واحدٌ، وهو بِناءُ الشَّيء بضَمِّ بعضه إلى بعض[3]، والمعنى المحوريُّ هو: زيادة قويَّةٌ تنشأ للشَّيء، فتُقيمُه، وتَنْصِبه أو تُعَظِّمه، وتمدُّ جرمه، فالبِناء: إنشاء ونصبٌ لجدران وبيوتٍ، وإقامتها على أساس، وقد ورد بناء السَّماء في القرآن الكريم

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 15.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 14/ 26.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بني).

سبع مرّات[1]، واستُعيرَ لخَلْقِ السَّماءِ في الآية بفعل البناء؛ لأنَّه منظرُ السَّماءِ فيما يبدو للأنظارِ شبيهٌ بالقُبَّةِ، ونَصْبُ القُبَّةِ يُدعى: بناءً، وهذا تشبيهٌ بما يُفهم، فالمرادُ بالبناء هنا: الخَلْقُ[2].

2) ﴿بِأَيْيْدٍ﴾: أصلُ يدٍ يُطلق على بناءِ اليَدِ للإنسانِ وغيره، ويُستعارُ في المِنَّةِ، فيُقالُ: له عليه يَدٌ، ويُجمَعُ على الأيادي واليُدِيِّ[3]، واليدُ: القوَّةُ، ومالي بفلان يدان، أي: طاقةٌ، قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ﴾، وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ﴾ [غافر: 57]، أي: عن ذِلَّةٍ واستسلام، واليَدُ: النِّعمة والإحسان تَصْطَنِعُه[4]، و(أيدٍ) في الآية يُرادُ بها: القوَّة والقُدْرَة، والمعنى: بَنيناها بِقُدْرَةٍ لا يَقْدِرُ أحَدٌ مِثلَها[5].

3) ﴿لَمُوسِعُونَ﴾: أصلُ (وسع) يدُلُّ على خِلافِ الضّيقِ والعُسْرِ[6]، والسَّعَةُ تُقالُ في الأمكنة، وفي الحال، وفي الفِعل، كالقُدْرة والجود ونحو ذلك، والوُسْعُ من القُدْرة: ما يَفْضُل عن قَدْرِ المُكلَّف، قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: 286][7]، والموسِعُ: اسمُ فاعلٍ مِن أوْسَعَ؛ إذا كان ذا وُسْعٍ، أي: قُدْرَةٍ، ومنه قوله هنا: ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾[8]، والواسِعُ: يُفيدُ كمالَ صفات الذّات، مِنَ الوُجودِ، والحَياةِ، والعِلْمِ، والقُدْرَةِ، والحِكْمَةِ، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ [البَقَرَة: 115].

4) ﴿فَرَشْنَٰهَا﴾: أصلُ (فرش) يدلُّ على تَمهيدِ الشَّيءِ وبَسطه[9]، يُقالُ: فَرَشَ يَدَهُ يَفْرُشُها فَرْشًا وافتراشًا، أي: بَسَطَها، ومَدَّها، والفِراشُ: البِساطُ، والافتراشُ: جَعْلُ الشَّيءِ فِراشًا والجُلوسُ عليه[10]، ويُطْلَقُ الفَرْشُ بِمَعنى: الشَّيءِ المفروش، أي: المُنْبَسِط

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (بني).
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/ 105، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 15.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (يدّ).
(4) الجوهري، الصحاح: (يد).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 16.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وسع).
(7) الراغب، المفردات: (وسع).
(8) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 16.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فرش).
(10) الجوهري، الصحاح، وابن سيده، المحكم: (فرش).

المُنْتَشِر، والجَمعُ: فُروشٌ[1]، والمراد بالفَرْشِ في الآية: البَسْطُ، شُبِّهَ تكوينُ اللّه سبحانه الأرضَ على حالِ البَسْطِ بفَرشِ البِساطِ ونحوه[2].

5) ﴿ٱلۡمَٰهِدُونَ﴾: أصلُ (مهد) يَدُلُّ على تَوْطِئَةٍ وتَسْهيلٍ للشَّيءِ[3]، ومِنهُ: المهْدُ، وهو التَّوثير، يُقال: مَهَّدتُ، أي: جَعَلتُ مَكانًا وطيئًا سهلًا[4]، والمِهادُ: الفِراشُ، والمكانُ المُمهَّدُ: الموطَّأُ[5]، يقالُ: مَهَدْتُ الفِراشَ مَهْدًا، أي: بَسطْتُه، ووطَّأْتُه، وتمهيدُ الأمورِ: تَسويتُها وإصلاحُها[6]، والمقصود بـ ﴿ٱلۡمَٰهِدُونَ﴾ في الآية: المُهيِّئونَ الموَطِّئونَ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

التَّفكُّرُ في بناء السَّماء ومهادِ الأرض وخَلْقِ الأزواج مطلَبٌ دينيٌّ

ورفعنا السَّماء، وبنيناها بقوَّتنا وقدرتِنا، وأحكمنا بناءَها، ووسَّعناها، ووسَّعنا أرزاقَها، وجَعَلْناها واسعةَ الأبعاد مترامِيَةَ الأطراف، ولا نزال نوَسِّعها خيراتٍ وأطرافًا باستمرار، ومهَّدنا الأرض لِمعيشتكم، وهيَّأناها، ووطَّأناها لِقيام الحياة فيها، وأحسنّا تمهيدَها وتهيئتها؛ فنِعْمَ الممهِّدون نحنُ، ونِعْم الموطِّئون نحن.

ومِن تهيئتِنا الحياةَ لكُم أن خلَقْنا نوعينِ مِن كلِّ صنف من المخلوقات، "ذكرًا وأنثى في النَّبات والحيوان، وفي الطَّبيعة ليل ونهار، ونور وظلام، وحرٌّ وبرد، وبحر وبرٌّ، وسهْلٌ وجبَلٌ، وجنٌّ وإنس، وخيرٌ وشرٌّ ... وهكذا"[7]، فعلْنا ذلك كلَّه - من بناء السَّماء وفرش الأرض وخلْقِ الأزواج - كي تتذكَّروا، فتَعْرِفوا أنَّه ﷻ الرَّبُّ القادر الَّذي لا يُعجِزُه شيءٌ، فتَعْمَلوا بِطاعة اللّه تعالى، ولا تَعْبُدوا سواه،

(1) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة: (فرش).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 17.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مهد).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة: (مهد).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (مهد).
(6) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 117.
(7) حجازي، التفسير الواضح: 3/ 541.

وتستدلّوا على قدرة الله على البعث والحشر والنَّشر، وأنَّ مَن قَدر على إيجاد ذلك؛ فهو قادر على إعادةِ الأموات يومَ القيامةِ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى (الواو) في قولهِ تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا﴾:

(الواو) في قولهِ تَعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ استئنافيَّة؛ إذ انتقل الحديثُ بها، وتَخَلَّص من ذِكْرِ أخبار الأمم الكافرة المهلَكة بِصنوف الهلاك والدَّعوة إلى الاعتبار بهلاكها إلى لَفْت الأنظار إلى عظائمِ المخلوقات، الدّالَّة على وجودِ الله تعالى الخالقِ العظيم، ودقيق صُنْعِه، بدءًا بذِكْر السَّماء وبنائِها، ثُمَّ الأرضِ ومهادها، إلى أزواجِ المخلوقات الَّتي بها يُمكِن الاستدلال على وحدانيَّة الخالق ﷻ، وقُدرته على البعث، وما وراءَهُ مِن حسابٍ وثواب وعذاب.

عظائم المخلوقاتِ دالَّة على الخالقِ العظيم، ودقيقِ صُنْعِه

ويجوزُ أن تكونَ الواوُ عاطفةً، والآيةُ معطوفة على الآية السّابقة: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾، أي: وقومَ نوحٍ أخذناهم بالعذابِ، والسَّماء بنيناها بأيدٍ، ومع ما يبدو من بُعْد المفارقة في الظّاهر بين أخْذِ قومِ نوح، وبين بناءِ السَّماء؛ فإنَّ هذه المفارقة تبدو موافَقَةً؛ إذا نظرنا إلى قدرة الله ﷻ، وقيّومَتِه جلَّ شأنه على كلِّ شيء، فهو سبحانه يحيي، ويميت، ويُغني، ويُقْني، ويَرْفع، ويضَع، وهو سبحانه الَّذي أخذ الظّالمين بالهلاك، وهو جلَّ شأنه الَّذي أقام السَّماء بقدرته[2]، فيكون بين الجملتين توسُّطٌ بين الكمالين؛ لاتِّحادهما في الخبريَّة، ولِما بينَهُما من التَّناسب اللَّفظيِّ؛ وهو اشتراكُهما في الفعليَّة، والتَّناسب المعنويِّ، وهو اتِّحاد الجُملَتَين في بيانِ عظمَةِ قُدْرَةِ الله تعالى.

(1) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 9/ 1105.
(2) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 529.

معنى (أل) في ﴿وَٱلسَّمَآءَ﴾:

إخكامُ بناءِ السَّماوات السَّبْع

(أل) في ﴿وَٱلسَّمَآءَ﴾ لِتعريف الجنسِ المفيدةِ استغراقَ السَّماواتِ، ولذلك لم تُجمَع؛ اكتفاءً بدلالةِ (أل)، والمعنى: أنَّ الله تعالى بَنَى السَّماواتِ كلَّها - سماءَ الدُّنيا، وما فوقها من سماواتٍ مِمّا أخبرنا عنهُ الوحيان الشَّريفان - بناها بطلاقةِ قُدْرَته، وعظمة قدرته، فأحكَمَ بناءَها، وزيَّن ظاهرها وباطنها.

نكتةُ تقديم (السَّماء) على الفعل في (بنينا):

من أغراض التَّقديم العنايةُ والاهتمامُ بالمقدَّمِ والتَّشويقُ للمؤخَّر

بناءُ الجملة على تقديم ذكر (السَّماء) جارٍ على مَهْيَع السّورة الكريمة من تقديم ذِكر الأسماءِ، أسماءِ الأنبياء وأسماءِ أُمَمهم، وبناء التَّراكيب عليها، مثل قوله: ﴿وَفِي مُوسَىٰٓ﴾، وقوله: ﴿وَفِي عَادٍ﴾، وقوله: ﴿وَفِي ثَمُودَ﴾، ثُمَّ يأتي قولُهُ: ﴿وَٱلسَّمَآءَ﴾ بالنَّصْبِ بِفِعْلٍ يُفَسِّره ﴿بَنَيْنَٰهَا﴾[1].

وفي تقديم (السَّماء) وبناء الجملة عليها إيقاظٌ للعقول وقَرْعٌ؛ لتَتَدبَّر عظيمَ بنائها، ودقيقَ صُنْعِها، وما وراءها من إشاراتٍ وما فيها من آيات، فتقديمُ (السَّماء) على عامِلِه للاهتمام به، ثُمَّ بِسُلوك طريقةِ الاشتغال زادَه تقويةً؛ ليتعلَّق المفعولُ بِفعله مرَّتين: مرَّةً بنفسه، ومرَّة بضميره، فإنَّ الاشتغال في قوَّة تَكرار الجملة، وزيدَ تأكيدُه بالتَّذييل بقوله: ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾[2]، و"لمّا كان المقصودُ إثباتَ العلم بالصّانع؛ قَدَّم الدليلَ، فقال: ﴿وَٱلسَّمَآءَ﴾ المُزَيَّنة الَّتي لا تَشُكّون فيها، ﴿بَنَيْنَٰهَا﴾؛ فاعرِفونا بها؛ إن كنتُم لا تعرفوننا"[3].

دلالةُ التَّعبير بفعل (البناء) ماضيًا:

تحقُّقُ إحكامِ بناءِ السَّماء منذُ أمدٍ بعيدٍ

معنى البناء في جملة ﴿بَنَيْنَٰهَا﴾، أي: خلقناها، وأتقَنّاها،

(1) النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 3/ 379.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 16.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 187.

وجعلناها سقفًا للأرض وما عليها[1]، ورفعناها[2]، وفي التَّعبير بمفردة البناء دلالةٌ على إحكام تكوينها، ودقَّة خَلْقِها، وتنبيهٌ على ما يستلزم بناء هذا الجِرم العظيم مِن قوانين ومعاييرَ تليق بعِظَمه.

وفي صوغ فعل البناءِ في جملة ﴿بَنَيْنَاهَا﴾ ماضيًا دلالةٌ على قِدَم ذلك البناءِ إلى أزمانٍ غابرَةٍ، لا يعلمُ قِدمَها إلّا الله تعالى.

لطيفةُ إسناد بناء السَّماء إلى ضمير العظمة:

عـظـمَـةُ خَـلْـقِ السَّماء وبنائِها

في إسناد بناء السَّماء إلى ضمير العظمة في جملة ﴿بَنَيْنَاهَا﴾ تنبيهٌ على عظمة هذا البناءِ الهائل الكبير؛ لأنَّ الَّذي تولّى بناءَه هو الكبيرُ العظيم ﷻ، والعظيم سُبحانه يُضْفي على بناء السَّماء وإتقانه عظمةً وجلالًا.

وقوله تعالى: ﴿بَنَيْنَاهَا﴾ "أدلُّ على عدم الشَّريك في التَّصرُّف والتَّدبير، بخلاف ما لو جاءَ النَّظمُ القرآنيُّ: (بنيتُها)؛ ذلك أنَّ قوله تعالى: ﴿بَنَيْنَاهَا﴾ لا يورِثُ إيهامًا بأنَّ الآلهة الَّتي كانوا يعبدونها، هي الَّتي يَرْجِع إليها الضَّمير في ﴿بَنَيْنَاهَا﴾؛ لأنَّ تلك إمّا أصنامٌ منحوتة، وإمّا كواكب جَعَلوا الأصنامَ على صوَرِها وطبائعها، فلمّا لم يُتَوَهَّم ما قالوا؛ قال (بنينا) نحن، ونحن غيرُ ما يقولون، ويَدَّعونه، فلا يَصلحون لنا شُركاء؛ لأنَّ كلَّ ما هو غير السَّماء، دون السَّماء في المرتبة، فلا يكون خالقَ السَّماء وبانيَها، فإذًا عُلِم أنَّ المرادَ جمعُ التَّعظيم، وأفاد النَّصُّ عظمتَه، فالعظمةُ أنْفَى للشَّريك، فثبتَ أنَّ قوله: ﴿بَنَيْنَاهَا﴾ أدلُّ على نفي الشَّريك مِن (بنيتُها) و(بناها الله)[3].

بلاغةُ الاستعارة في فعل البناء:

تَكْوينُ السَّماء وخلْقُها أعظمُ مِـمّـا يَـتَـصَـوَّرُ العبادُ

في التَّعبير بالبناء هنا استعارة؛ إذ "استُعير لِخلق السَّماء فعلُ

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 811.
(2) القاسمي، محاسن التأويل: 9/ 44.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 187.

البناء؛ لأنَّ منظر السَّماء فيما يبدو للأنظارِ شبيهٌ بالقُبَّة، ونصْبُ القُبَّة يُدعى بناءً، وهذا استدلالٌ بأثر الخلق الَّذي عاينوا أثرَه، ولم يَشْهَدوا كيفيَّته؛ لأنَّ أثره يُنْبِئُ عن عظيم كيفيَّته، وأنَّها أعظمُ ممّا يُتَصَوَّرُ في كيفيَّة إعادة الأجسام الباليةِ"[1].

معنى الباء في قوله: ﴿بِأَيْيْدٍ﴾:

بناءُ السَّماء حاصلٌ بقُدْرَةِ اللهِ تعالى وعظمته

(الباء) في القيد ﴿بِأَيْيْدٍ﴾ من قوله تعالى: ﴿بَنَيْنَهَا بِأَيْيْدٍ﴾ باءُ السَّببيَّة، أي: بنيناها بقدرتنا، وخلقناها، وأبدَعْناها، وأنشأناها، ورفعْناها بقوَّة عظمتنا.

دلالةُ التَّعبير بلفظ (أيدٍ)، ونكتة تنكيرها:

عظمَةُ القدرةِ الإلهيَّة والقوَّة الرَّبّانيَّة

(أيد) هنا مُعَبَّرٌ بها عن القوَّة، وأصلُه: جمع يَدٍ، ثُمَّ كثُر إطلاقُه حتّى صار اسمًا للقوَّة، والمعنى: بنيناها بقدرةٍ لا يَقْدِر أحدٌ مثلَها[2]، ففيها إشارةٌ إلى أنَّه "يعني: مِن فِعلنا، وعَمَلنا، مِن غير أن نَكِلَه إلى غيرِنا"[3].

وفي تنكير (أيد) دلالة على تفرُّد تلك القوَّة العظيمة والقدرة المطلقة، وأنَّها القوَّة القادرة على إنشاءِ هذا الجِرم العظيم، وإبداعه على هذا النِّظام الفريد.

لطيفةُ ترك إضافة الأيدي إليه ﷻ:

دقَّةُ البيان القرآنيّ في دَفْعِ تَوَهُّم المعاني الباطلَةِ

تُرِكت إضافة (أيد) في قوله تعالى: ﴿بَنَيْنَهَا بِأَيْيْدٍ﴾ في حين أُضيفت إليه سبحانه في مواضع أُخَر (بأيدينا)، والنُّكتة في ذلك ما قاله الرّازيُّ: "لأنَّ السَّماء لا يخطر ببال أحدٍ أنَّها مخلوقةٌ لِغير الله تعالى، والأنعام ليست كذلك، فقال هناك - أي: في خلق الأنعام -: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ [يس: 71] تصريحًا بأنَّ الحيوان مخلوقٌ لله تعالى

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 15.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 16.
(3) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 31.

مِن غير واسطَةٍ، وكذلك في قوله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: 75]، وفي السَّماء ﴿بِأَيْيْدٍ﴾ مِن غير إضافةٍ؛ للاستغناء عنها.

وفيه لطيفة أخرى: هي أنَّه هناك لمّا أثبتَ الإضافة بعدَ حذف الضَّمير العائد إلى المفعول؛ لم يقُل: خلقته بيدي، ولا قال: عملَتهُ أيدينا، وقال هاهنا: ﴿بَنَيْنَهَا بِأَيْيْدٍ﴾؛ لأنَّ هناك لم يخطر ببال أحدٍ أنَّ الإنسانَ غيرُ مخلوقٍ، وأنَّ الحيوانَ غيرُ معمول، فلم يقُل: خلقتُه، ولا عملتُه، وأمّا السَّماء؛ فبعضُ الجهّال يَزعم أنَّها غير مجعولةٍ، فقال: ﴿بَنَيْنَهَا﴾ بعَوْد الضَّمير تصريحًا بأنَّها مخلوقة"[1].

معنى (الواو) في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾:

ملكوتُ الله تعالى في تَوَسُّعٍ دائم، والعلم الحديث يؤكِّد ذلك

(الواو) في قوله: ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ حاليَّة، أي: بنيناها بقُدْرَتنا والحالُ أنّا موسعون على الدَّوام، لا يتوقَّف مُلْكُنا ولا ملكوتُنا عن التَّوسُّع، إلى ما شاء الله تعالى مِن التَّوسُّع زمانًا ومكانًا، وهذا ما "أثبته العلم الحديث، وعُرِف بنظريَّة التَّمدُّد، الَّتي أصبحت حقيقةً عِلميَّة في أوائل هذا القرن، وأشار إليها القرآنُ الَّذي أُنزل على النَّبيِّ الأُميِّ محمَّد ﷺ منذ أربعة عشر قرنًا"[2].

معنى (إنَّ)، ودلالة التَّعظيم في (إنّا):

عظمةُ الخبرِ تَقتضي نسبتَه إلى عظيمٍ

(إنّ) في قوله: ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ توكيديَّة؛ اقتضتها ضخامَةُ الخبَر وغرابتُه؛ إذ تُقرِّر إيساعَ الله تعالى ملكَه وملكوته من غير حدود، وفي ذلك التَّوكيد "تنزيلُ المخاطبين منزلةَ مَن يُنكر سَعة قدرةِ الله تعالى؛ إذ أحالوا إعادةَ المخلوقاتِ بعدَ بِلاها"[3].

وإدخالُ (إنَّ) على ضمير العظمة في (إنّا) ملائم لعظمة الخبرِ ﴿لَمُوسِعُونَ﴾؛ فناسبَ توكيدَه باللّام، واسميَّة الجملة، وصوغهِ اسمَ فاعل أيضًا.

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 188.
(2) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 9/ 1105 - 1106.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 16.

معنى اللّام في قوله: ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾:

تـقـريـرُ إيـسـاعِ الكونِ وتوكيدُه

لمّا كان الخبرُ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ من العظمة بمكانٍ؛ ناسبَ توكيده بلام التَّوكيد، المتآزرة مع (إنَّ)، واسميَّة الجملة؛ تقريرًا لإيساعه تعالى ملكَهُ وملكوتَه، وتقريرًا لدلالة اتِّساع الكون اتِّساعًا لا يتوقَّف.

دلالة التَّعبيرِ بلفظ الإيساعِ اسمَ فاعلٍ:

دوامُ الإيـسـاعِ واستِمرارُهُ

التَّعبير بمفردة الإيساع هنا أفسَحَ للمفسِّرين ميدان التَّأويل إفساحًا كبيرًا، وكان مِن دواعي ذلك إطلاقُ الإيساعِ عن التَّقييد بِمُتَعَلِّقٍ معيَّنٍ، فقد أوَّلوها بجملةِ أقوالٍ، هي: إنّا لموسعون في الرِّزق بالمطَر، أو لموسعون السَّماء، أو لقادرون على الاتِّساع بأكثر من اتِّساع السَّماء، أو لموسعون بِخلق سماءٍ مثلِها، أو لَذَوو سَعةٍ لا يضيق علينا شيءٌ نُريدُه[1].

والسَّعَةُ تُقال في الأمكنة، وفي الحال، وفي الفعل، كالقدرة والجود، ونحو ذلك[2]، ومن هنا فقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ تكميل لمعنى قوله: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ﴾ إن فُسِّر الأيد بالقوَّة؛ ليَضُمَّ مع صفة القدرة صفةَ الكرم، أو تتميمٌ إن فُسِّر بالإنعام، كما فُرِّع قولُه: ﴿ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾ [طه: 50] على قوله: ﴿أَعۡطَىٰ﴾ [طه: 50]؛ ألا ترى إلى قرينَتِها: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ﴾[3].

قال ابن عاشور: "وتصاريفه، أي: الإيساع، جائيَةٌ من السَّعة، وهي امتدادُ مساحة المكان، ضدُّ الضّيق، واستُعير معناها للوفرة في أشياءَ مثلَ الإفراد، مثل عمومها في ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ [الأعراف: 156]، ووفرةِ المال مثل: ﴿لِيُنفِقۡ ذُو سَعَةٖ مِّن سَعَتِهِۦۖ﴾ [الطلاق: 7]،

(1) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 373.
(2) الراغب، المفردات: (وسع).
(3) الطيبي، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب: 15/ 31.

وقوله: ﴿عَلَى ٱلۡمُوسِعِ قَدَرُهُۥ﴾ [البقرة: 236]، وجاء في أسمائه تعالى الواسِعُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ١١٥﴾ [البقرة: 115]، وهو عند إجرائه على الذّات يُفيد كمالَ صِفاته الذّاتيَّة: الوجود، والحياة، والعلم، والقدرة، والحكمة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ١١٥﴾ [البقرة: 115]، ومنه قوله هنا: ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾"[1]، ومن مجمل تلك الاجتهادات يتَقَرَّر أنَّ في التَّعبير بالإيساع دلالةً على تمدُّد الكون من جهاتِه الَّتي يريد الله ﷻ إيساعَه منها، كما أكَّده العلم الحديثُ.

وصوغ (موسعون) اسمَ فاعل دالٌّ على دوام ذلك الإيساعِ، على وجهٍ منضبطٍ مستقرٍّ لا يعتريه ارتباكٌ، ولا يطرأ عليه اختلالٌ.

نكتةُ حذف متعلّق الإيساع في قوله: ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾:

توسيعُ الله تعالى الأقطارَ والأرزاقَ

حَذْفُ مفعول الإيساع في جملة: ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ توسُّعٌ في المعنى، أفسحَ لتقديرِ مفاعيلَ عديدةٍ، منها ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ "لأرجائها وأنحائها، وإنّا لموسعون أيضًا على عبادنا بالرِّزق الَّذي ما ترك الله دابَّة في مَهامه القِفار ولُجَجِ البحار وأقطار العالَم العُلويِّ والسُّفْليِّ إلّا وأوصل إليها من الرِّزْقِ ما يَكْفيها، وساق إليها من الإحسانِ ما يُغنيها"[2].

معنى (الواو) في قوله: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا﴾:

التَّناسُب اللَّفظيُّ والمعنويُّ حسَّن الوصلَ

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ﴾ عاطفة، عطفت على خَلْقِ السَّماء خلقَ الأرض عطْفَ الشَّيءِ على مخالِفِه؛ لاقتران المتخالِفَيْنِ في الجامع الخياليِّ[3]، و(الأرض) "منصوبة بفعل مضمرٍ، أي: فرشنا الأرضَ فرشناها"[4]، نظيرُ قوله: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا﴾، فيكون بين الجملتين توسُّطُ بين الكمالَيْنِ؛ لاتِّحاد

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 16.
(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 812.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 15.
(4) النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 3/ 379.

الجُملَتَين في الخبريَّة، ولِما بينَهُما من المناسبَةِ اللَّفظيَّة والمعنويَّة، فأمّا اللَّفظيَّة؛ فاتِّحادُهما في الفعليَّة، وبناؤُهما على أسلوبِ الاشتغالِ، وأمّا المعنويَّة؛ فما بين السَّماء والأرض من التَّقابل وضربٍ من ضروب التَّضاد.

معنى (أل) في (الأرض):

(أل) في (الأرض) هنا لتعريف العهد العلميِّ؛ فاللّه تعالى فرش لنا هذه الأرضَ الَّتي نَعْرِفُها، ومهَّدها للحياة، ووطَّأها للأحياءِ.

دلالة تقديم (الأرض) على ﴿فَرَشْنَٰهَا﴾:

في تقديم (الأرض) في صدر الجملة إيقاظٌ للعقول؛ لتتدبَّر عَظيم فرشِها وتوطئتها، وتنبيهٌ على أنَّه من داعي ذِكْرِها التَّدبُّر فيها والاستدلال بمِهادِها على عظيم القُدرة الإلهيَّة، ويُسر البعثِ بعدَ الموت.

من أغراض التَّقديم العنايةُ والاهتمام بالمقدَّم والتَّشويق للمؤخَّر

وكذلك يُقال في تقديم (الأرض) هنا ما قيل في تقديم (السَّماء) في قوله: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ﴾: إنَّه لإرادةِ الاهتمام، ثُمَّ بِسُلوك طريقةِ الاشتغال زادَه تقويةً؛ ليتعلَّق المفعول بِفعله مرَّتين: مرَّةً بنفسه، ومرَّة بضميره، فإنَّ الاشتغال في قوَّة تكرار الجملة، وزيدَ تأكيدُه بالتَّذييل بقوله: ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾[1]، وكذلك يقال في تقديم (الأرض): إنَّه "لمّا كان المقصودُ إثباتَ العلم بالصّانع؛ قَدَّم الدَّليلَ، فقال: ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ الممهَّدة الَّتي تعيشون عليها، وتتقلَّبون فيها ﴿فَرَشْنَٰهَا﴾، فاعرِفونا بها؛ إن كنتُم لا تعرفوننا[2].

نكتةُ تقديم (السماء) على (الأرض):

دحوُ الأرضِ كان بعدَ خَلْق السماء

من دواعي تقديم ذِكْرِ بناء السَّماء على فرش الأرض هنا "أنَّ السَّماء أعظمُ مخلوقٍ يُشاهده النّاس"[3]، وفي هذا التَّرتيب دليلٌ على

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 16.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 187.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 15.

أنَّ دَحْوَ الأرض كان بعدَ خَلْق السَّماء؛ لأنَّ بناءَ البيت يكون في العادةِ قبلَ الفَرْش[1].

دلالةُ التَّعبير بفعل (الفرش) ماضيًا:

هيَّأ الله تعالى الأرضَ لعَيْشِ النّاسِ عليها

الفرْشُ في قول الله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا﴾ هو تمهيدُ الأرض، وتَوْطِئَتُها بما أودع الله تعالى عليها تهيئةً لحياة النّاس عليها، بحيثُ "يتمكَّنون فيها مِن كلِّ ما تتعلَّق به مصالحُهم من مساكِنَ، وغِراس، وزَرْع، وحَرْث وجلوس، وسلوك للطُّرق الموصلة إلى مقاصدهم ومآربهم"[2].

وصَوْغُ الفَرش ماضيًا في جملة ﴿فَرَشْنَٰهَا﴾ يُقَرِّر تحقُّق إعداد الأرض للحياة، وتهيئتها لإقامة النّاس عليها، وعَيْشِهم فيها بِراحة ويُسر منذ أمدٍ بعيد.

بلاغة الكنايةِ في لفظ ﴿فَرَشْنَٰهَا﴾:

عظيمُ رحمة الله تعالى بخَلْقِه؛ إذ هيَّأ لهم أسبابَ العَيْشِ في الأرض

لمّا كان من معاني ﴿فَرَشْنَٰهَا﴾: "بسَطْناها، ومهَّدناها، ومدَدْناها، فالفراش كنايةٌ عن البَسْط والتَّسوية، يقال: مهَّدت الفراشَ، أي: بسَطْتُه، ووَطَّأته، وتمهيدُ الأمور: تسويَتُها وإصلاحُها[3]، والبسط والتَّهيئة تقتضيانِ سهولةَ العيشِ عليها، وهذا دالٌّ على عَظيمِ رَحْمَةِ الله تعالى بالخَلْقِ أن سهَّل لهم سبُلَ العيشِ.

بلاغةُ الاستعارةِ في ﴿فَرَشْنَٰهَا﴾:

هيَّأ الله تعالى الأرض للحياة تهيئةَ المَهْدِ للطِّفل الرَّضيع

في التَّعبير بالفرش في جملة ﴿فَرَشْنَٰهَا﴾ استعارة تصريحيَّة تبعيَّة؛ إذ شُبِّهت تهيئةُ الأرض للحياة بعمليَّة فرش البُسُط والأسِرَّة وأنواع الأثاث لتَوْفير الرّاحة والسَّعادة للنّاس، وحُذِفَت التَّهيئة، وعُبِّر مكانَها بالفرش، وصيغَ ماضيًا على سبيل الاستعارة التَّبعيَّة[4]؛

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 188.
(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 812.
(3) القنّوجي، فتح البيان في مقاصد القرآن: 13/ 209.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 17.

مبالغة في إعداد الأرض لتسهيل حياةِ الخَلْق عليها، كما يُهيَّأ المَهْدُ للطِّفل الرَّضيع.

وفي هذا الفرش دلالةٌ على قدرة اللّه وحكمته؛ إذ جَعَل الأرضَ مبسوطَةً لِما أراد أن يجعل عليها مِن أنواع الحيوان، يمشي عليها، ويتوسَّدها، ويَضطجع عليها، ولو لم تكن كذلك؛ لكانت مُحدَوْدَبَةً تُؤْلِم الماشين، بَلْه المتوسِّدَ والمضطجع"[1].

دلالةُ إسناد فعل الفرش إلى ضمير العظمةِ دون التَّقييد (بأيد):

كـلُّ خـلـقٍ على الله تعالى يسيرٌ

في إسناد فعل الفرش إلى ضمير العظمة في قوله: ﴿فَرَشْنَاهَا﴾ دلالةٌ على كمالِ الفرش والإعداد للحياة، وضبط الكوكب الأرضيِّ بمعايير الصِّحَّة والسَّلامة والأمن والأمان الَّتي وضعَها اللّه تعالى فيه.

ولم يُقيَّد فَرْش الأرض بالجارِّ والمجرور (بأيد) مثلَما قُيِّد به بناءُ السَّماء ليُسْر تهيئةِ الأرض للحياةِ عن إبداعِ خَلْقِ السَّماء في معتقدِ الكُفّار، وإلّا فهما بالنِّسبة للّه تعالى في اليُسر سواء، وقد قال بعض أهل العلم بأنَّه "استُغنيَ عن إعادة القيد (بأيدٍ)؛ لِدلالة ما قبله في جملة: ﴿بَنَيْنَاهَا بِأَيْيْدٍ﴾ عليه"[2].

معنى (الفاء) في قولهِ تعالى: ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾:

التَّذكيرُ بِنِعْمَةِ الـلـه تـعـالى وعَظَمَتِه

(الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ تفريعيَّة؛ إذ "لمّا كان في فَرْشِها إرادةُ جعلِها مهدًا لمَنْ عليها مِنَ الإنسان؛ أُتبِع قوله تعالى: ﴿فَرَشْنَاهَا﴾ بتفريع ثناءِ اللّه تعالى على نفسه على إجادة تمهيدها؛ تذكيرًا بعظمته ونعمته، أي: فنعم الماهدون نحنُ"[3]، والمعنى: أنَّهُ تَسبَّبَ عن فرش الأرض "أن يقال في وصْفِنا: ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾، أي: نحن؛ لكمالِ قُدْرَتِنا"[4].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 17.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 17.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 17.
(4) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 474.

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعل (نِعْم):

بديعُ صُنعِ الله تعالى يَستلزم مـدْحَـه تعالى والثَّناءَ عليه

(نِعْم) فعلٌ ماضٍ جامدٌ لإنشاء المدحِ[1]، فقوله تعالى: ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ ثناءٌ من الله ﷻ على نفسه ﷻ، كما في قوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون: 14]، وقوله سبحانه: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾ [الملك: 1]، وقوله جلَّ شأنه: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾ [الفرقان: 1]، والمخصوصُ بالمدحِ دلَّ عليه المَقامُ، أي: فنِعْمَ الماهدون نحنُ، أي: الله ﷻ[2].

و"لمّا كان الفراش، قد يكون صالحًا للانتفاع من كلِّ وجهٍ، وقد يكون من وجهٍ دونَ وجه؛ أخبر تعالى أنَّه مهَّدَها أحسنَ مِهادٍ، على أكمَلِ الوُجوه وأحسَنِها، وأثنى على نفسِه بذلك، فقال: ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ الَّذي مهَّد لعباده ما اقتَضَتهُ حِكْمَتُه ورَحمَتُه وإحسانُه"[3].

وجه التَّعبير بمفردة ﴿ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ مادَّةً وصيغة:

بيانُ رفقِ الله تعالى بالعبادِ

المَهدُ مِنْ قولهم: مهَّدْتُ الفراش، أي: بسطْته، ووطَّأته، وحسَّنته، وتمهيد الأمور: تسويتها وإصلاحُها[4]، و"الماهد: الَّذي يُهَيِّئُ الشَّيءَ، ويُمَهِّده، كما تُمهَّد الأرضُ للزَّرْع، وكما يُمَهَّد الفِراش للنَّوم، ومنه: المَهد، وهو ما يهيَّأ مِن فراشٍ لنومِ الوليد"[5].

وفي التَّعبير بمفردة المَهْدِ إيحاءٌ بأنَّ الله تعالى رفيقٌ بالإنسان، وأنَّه أعَدَّ له ما تُعِدُّ الأمُّ الرَّؤوم لوليدها الضَّعيف من المهاد الضّامن لسلامته، من تمهيد وجه الأرض، وتعمير باطنِها بأسباب الخيراتِ، مِن زروعٍ وثمار ومياهٍ وغير ذلك، فيجِب على الإنسان أن يَعْرِفَ هذا

(1) الدعاس، إعراب القرآن: 3/ 266.
(2) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 530.
(3) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 812.
(4) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 109.
(5) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 531.

لربِّه ﷻ، كما يجِبُ أن يَعْرِفَ الرَّضيع - إذا شبَّ - حقوقَ أمِّه، مع فارق غِنَى الله تعالى عن العبدِ وحاجَةِ الأمِّ إلى ابنِها.

"وفي إيثار صيغة اسم الفاعل في ﴿ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ إشارة إلى أنَّ من الموادِّ ما تختلف صيغتُه في النَّظْم فعلًا واسمًا، فيكون أحدُهما أرقَّ وألطفَ وأفصحَ، فيُؤْثَر على غيره في مقام، ويؤثر عليه غيرُه في آخر، والمرجعُ في تحديدِ ذلك الذَّوقُ"[1]، و"صيغة الجَمعِ في قوله: ﴿ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ للتَّعظيم"[2].

لطيفةُ التَّنويعِ بين البناءِ للسَّماء والفرش للأرض:

خِطابُ القرآنِ الكريمِ النّاسَ بِما يَعْقِلونَ، ويُدْرِكونَ

روعي في وصف خَلْق الأرضِ ما يبدو للنّاس من سطحها - أي: الفَرْش - لأنَّه الَّذي يهمُّ النّاس في الاستدلال على قدرة الله تعالى، وفي الامتنان عليهم بما فيه لُطْفُهم والرِّفق بهم، وروعي في ذِكْرِ السَّماء ما يبدو من قُبَّةِ أجوائها - أي: البناء - دون بحثٍ عن تَرامي أطرافها وتَعدُّد عوالِمها؛ إذ لا يَبْلُغ النّاس إدراكَه؛ ولذلك أُتبِع الاعتراضُ بالتَّذْييل بقوله: ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾، فالمراد منه تلقينُ النّاس الثَّناءَ على الله تعالى فيما صَنع لهم فيها من مِنَّةٍ؛ ليَشكروه بذلك الثَّناء، كما في قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة: 2][3].

فالبناءُ باقٍ إلى قيام القيامة، لم يَسقُط منه شيءٌ، ولم يُعدَم منه جُزء، وأمّا الأرض؛ فهي في التَّبدُّل والتَّغيُّر كالفرش الَّذي يُبسَط، ويُطْوى، ويُنقل، والسَّماء كالبناء المَبْنيِّ الثّابت، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿سَبْعًا شِدَادًا ۝١٢﴾ [النبأ: 12]، وأمّا الأراضي؛ فكَم منها ما صار بَحْرًا، وعاد أرضًا من وقت حُدوثها.

والسَّماء تُرى كالقُبَّة المَبْنيَّة فوق الرُّؤوس، والأرض مبسوطَةٌ

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 9/ 44، بتصرف

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 17.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 17.

مدحوَّةٌ، والبناء بالمرفوع أليقُ، كما قال تعالى: ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا﴾ [النازعات: 28]، والسَّماء مسكنُ الأرواح، والأرض موضِعُ الأعمال، والمَسْكَنُ أليقُ بكونه بناءً[1].

معنى (الواو) في قوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا﴾:

أجناس الحيوان قريبة للأنظار

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ عاطفةٌ على جملة: ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا﴾، أي: "وفَرَشْنا الأرض، وخلقنا من كلِّ شيء زوجين"[2]، و"تَرَك (خلَقنا) الأوَّلَ؛ استغناءً بدلالةِ الكلامِ عليه"[3]، وعُطِفَ على خلقِ الأرض خَلْقُ أجناسِ الحيوان؛ لأنَّها قريبةٌ للأنظار، لا يُكَلِّفُ النَّظرُ فيها والتَّدبُّر في أحوالها ما يُزْهِق الأذهان[4].

معنى (مِن) ودلالتُها:

(مِن) في جملة: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ للابتداءِ، وهي متعلِّقةٌ بـ ﴿خَلَقْنَا﴾، أي: خلقنا مِن كلِّ شيءٍ زوجين، ويجوز أن تكون (مِنْ) بيانيَّةً، وتكونَ متعلِّقةً بمحذوف حال من ﴿زَوْجَيْنِ﴾؛ إذ هو في الأصل صفةٌ لهُ، والتَّقدير: خلقنا زوجينِ كائنينِ مِن كُلِّ شيءٍ[5].

دلالة التَّعبير بـ ﴿كُلِّ﴾:

خلقُ الله تعالى لكلِّ شيءٍ زوجًا يكمِّله

التَّعبيرُ بكلمة العموم ﴿كُلِّ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ يفيد استغراقَ الأشياءِ، الَّتي شاءَها اللَّه تعالى خَلْقَها، فبِقُدْرَته ﷻ خلقَ من كلِّ شيءٍ زوجًا له، يُزاوجه، ويكمِّله، ويُعرف به، فيحضُر في النَّفس عندَ ذِكْرِه، مثل الرَّجل والمرأة، والخير والشَّرِّ، والكثرةِ والقلَّة... إلخ.

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 187.
(2) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 531.
(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 547.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 15.
(5) الصافي، الجدول في إعراب القرآن: 9/ 322.

والعمومُ النّاضِح مِن كلمة ﴿كُلِّ﴾ يتآزَر مع عطاءات عناصر التَّركيب على إفادة معاني العموم والاستغراق والإحاطةِ.

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿شَيْءٍ﴾ نكرةً، وإضافةِ ﴿كُلِّ﴾ إليها:

تقريرُ طَلاقَةِ القُدرة الإلهيَّة

في التَّعبير بلفظ ﴿شَيْءٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ دلالة على عموم النَّوع مِن جِنس الحيوان[1]، وفي إضافة لفظ العموم ﴿كُلِّ﴾ إلى ﴿شَيْءٍ﴾ نكرةً مبهمًا إفادَةُ الاستغراقِ والشُّمول أيضًا؛ تقريرًا لطلاقَةِ قُدرته ﷻ بخلقه زوجًا مقابلًا لـ ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾.

وتنكير ﴿شَيْءٍ﴾ يدلُّ على ضآلته، كما يدلُّ على ضخامته، وذلك أيضًا من المُزاوجة بين المعاني، الَّتي هي إحدى مخلوقات الله تعالى، الَّتي وضعها للنّاس توطئةً لِتَيْسير حياتهم، وراحة نُفوسِهم.

لطيفةُ تقديم شبهِ الجملة (من كلّ شيء):

في تقديم شبه الجملة: (من كلّ شيء) على قوله: ﴿خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ إلحاحٌ على تأكيدِ القَصْدِ إلى ذلك الاستغراقِ الشّامل.

دلالةُ التَّعبير بفعل الخَلْقِ:

الخلقُ إبداعٌ من غير احتذاء، وليس إلّا لله تعالى

في التَّعبير بفعل الخلق في قوله تعالى: ﴿خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ دلالةٌ على دقَّة تقدير الخالق ﷻ تلك المُتزاوِجاتِ مِنَ الأشياءِ مِنَ العَدَم، ويُسْتَعْمَلُ الخلقُ في إبداع الشَّيء من غير أصل يُقاس عليه ولا احتذاء، فقوله تعالى: ﴿خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾، أي: أبدَعْنا إيجادَهُما بتقديرٍ دقيقٍ ابتداءً، بلا قياس على نموذج سابقٍ، وقد يُستَعمَل الخلق في إيجاد الشَّيء من الشَّيء، كما قال تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [النساء: 1]، وليس الخلق بمعنى الإبداع إلّا لله تعالى، ولهذا قال تعالى في الفصل بينه وبين غيره: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ [النحل: 17][2].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 17.

(2) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: 2/ 566.

دلالةُ إسنادِ الفعل (خلق) إلى ضمير العظمة:

خلْقُ الله تعالى زوجَـي الأنـواعِ ضـرورةٌ لإقامة حيـاة الإنسـان على الأرض

في إسناد خلق الزَّوجين إلى ضمير العظمة، في قول الله تعالى: ﴿خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ إيذانٌ بعظمة خَلْقهما، وجليل حكمةِ الخالق العظيم ﷻ في إيجادهما، وتوقُّف كمالِ فَرْش الأرض وتوطئتها لحياة الإنسان على وُجودِهما.

دلالةُ التَّثنية في المفعول ﴿زَوْجَيْنِ﴾:

مـن الـزَّوجـين تـنـشـأ حـيـاةٌ جـديـدة؛ دليلًا عـلـى إمـكـان البعث وإنشاء الـخـلـقِ بعد الفناءِ

الزّوج: الذَّكر والأنثى، وتثنيةُ (زوج) هنا أُريد به ما يُزَوَّجُ بين المخلوقات، ومن لوازم الـ ﴿زَوْجَيْنِ﴾ كونهما "مصطحبَيْن ومتلازمَيْن"[1]، والمقصود بهما كلُّ صنفين، أو أمرين متقابلين أو نوعين من ذَكَرٍ وأنثى، وبرٍّ وبحر، وشمس وقمر، وحلوٍ ومُرٍّ، وسماء وأرضٍ، وليل ونهار، ونور وظلمة، وجنٍّ وإنس، وخير وشرٍّ، وموت وحياة، وسهل وحزنٍ، وصيفٍ وشتاء، وإيمانٍ وكفر، وسعادة وشقاوة، وحقٍّ وباطل، وسرورٍ وغمٍّ، إلى غير ذلك ممّا لا يَنْحَصِرُ، فكلُّ اثنين منها زوجٌ، والله تعالى واحدٌ لا مِثْلَ له[2].

وهذا الاستدلال عليهم بخلقٍ يُشاهدون كيفيّاتِه وأطوارَه؛ كلَّما لَفَتوا أبصارهم، وقَدَحوا أفكارهم - وهو خَلْقُ الذَّكر والأنثى - ليكون منهما إنشاءُ خلقٍ جديد يَخْلُف ما سلَفه، وذلك أقربُ تمثيلٍ لإنشاء الخَلق بعد الفناء - وهو البعثُ الذي أنكروهُ -؛ لأنَّ الأشياء تُقَرَّبُ بما هو واضحٌ من أحوالِ أمثالِها؛ ولذلك أتبَعَهُ بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[3].

إيـجـابُ المِـحَـنِ اخـتـبـارٌ يُـرغِّـب فيه بالمَرغوب، ويُحذِّرُ فيهِ عَنِ المَرهوبِ

وفي خلْقِ الله تعالى الأشياءَ زَوْجَين ونوعين مختلفين متضادَّين دلالةٌ على "إيجاب المِحَن عليهم؛ من نَحوِ عُسْرٍ ويسر، وغَناء وحاجة،

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 181.
(2) القنوجي، فتح البيان في مقاصد القرآن: 13/ 209.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 17.

وخير وشرٍّ؛ ليمتحنَهُم على اختلاف الأحوال وتضادِّها؛ فيُرَغِّبهم في كلِّ مرغوب، ويُحَذِّرهم عن كلِّ مرهوب"[1].

القادرُ على خلق الأشياءِ المتَّفقةِ والمختلفةِ يستحقُّ كمالَ المدحِ

وبالتَّذكير بخلق الزَّوجين تنبيهٌ إلى "قُدرته على خَلْقِ ما يشاءُ خَلْقَه من شيءٍ، وأنَّه ليس كالأشياءِ، الَّتي شأنُها فعلُ نوعٍ واحدٍ دونَ خلافِه؛ إذ كلُّ ما صفتُه فعلُ نوعٍ واحدٍ دونَ ما عداه كالنّارِ الَّتي شأنُها التَّسخينُ، ولا تصلحُ للتَّبريدِ، وكالثَّلجِ الَّذي شأنُه التَّبريدُ، ولا يصلحُ للتَّسخينِ، فلا يجوزُ أن يوصفَ بالكمالِ، وإنَّما كمالُ المدحِ للقادرِ على فعلِ كلِّ ما يشاءُ فِعْله من الأشياءِ المتَّفقةِ والمختلفةِ[2].

معنى (لعلَّ) في قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾:

الرَّجاء في كلام اللـه تعالى بِحَسَبِ عُرْفِ البَشَر؛ لأنَّه خطاب لهم

(لعلَّ) في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ حرفٌ دالٌّ على التَّعليلِ، أي: "فعلنا ذلك كلَّه، من بناء السَّماء، وفرْشِ الأرض، وخلْقِ الأزواج؛ إرادةَ أن تتذكَّروا، فتعرفوا الخالقَ، وتعبدوه"[3]، ويجوزُ أن تكون (لعلَّ) دالَّةً على الرَّجاء، ويكون ذلك بالنِّسبةِ إلى الخَلْقِ، أي: "بِحَسَبِ خَلْقِ البَشَر وعُرْفِها"[4].

دلالةُ التَّعبير بالفعل ﴿تَذَكَّرُونَ﴾، وصوغِه مضارعًا:

خَلْق الذَّكر والأنثى مِن نطفةٍ هو النَّشأة الأولى، وهو دالٌّ على النَّشأة الآخرة

معنى التَّذكُّر في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ التَّفكُّر، أي: لعلَّكم "تتفكَّرون في الفروق بين المُمكِنات والمستحيلات، وتتفكّرون في مراتبِ الإمكان، فلا يختلط عليكم الاستبعادُ وقلَّة الاعتياد بالاستحالة، فتتوَهَّموا الغريبَ محالًا.

فالتَّذكُّر مستعمَلٌ في إعادة التَّفكُّر في الأشياء ومراجعةِ أنفُسِهم فيما أحالوه؛ ليَعْلَموا بعد إعادة النَّظر أنَّ ما أحالوه ممكنٌ، ولكنَّهم لَم يألفوه؛ فاشتبه عليهم الغريبُ بالمُحال، فأحالوهُ، فلمّا كان

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 391.
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 547.
(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 404.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 181.

تجديدُ التَّفكُّر المغفولِ عنه شبيهًا بتذكُّر الشَّيء المنسيِّ؛ أُطْلِقَ عليهِ ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

وهذا في معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝٦٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٦١ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ۝٦٢﴾ [الواقعة: 60 - 62]، فقد ذُيِّل هنالك بالحثِّ على التَّذكُّر، كما ذُيِّل هنا بِرجاء التَّذكُّر، فأفاد أنَّ خَلْق الذَّكر والأنثى مِن نطفة هو النَّشأة الأولى، وأنَّها الدّالَّة على النَّشأة الآخرة"[1].

دلالةُ حذفِ مفعول ﴿تَذَكَّرُونَ﴾:

حُذِف مفعولُ التَّذكُّر مِن جملة: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، وتقديره: "تَذكَّرون آياتِ وحدانيَّته وألوهيَّته، أو: تذكَّرون البعثَ والثَّواب والعقاب"[2]، "فتعلَّموا أيُّها المشركون باللّه تعالى أنَّ ربَّكم الَّذي يَستوجب عليكم العبادة، هو الَّذي يَقدر على خَلق الشَّيءِ وخِلافِه، وابتداع زَوْجَين من كلِّ شيء، لا ما لا يَقْدِرُ عَلى ذلكَ"[3].

التَّفكُّر في مُتزاوجات المخلوقاتِ يَهْدي إلى الوحدانيَّة، وإلى البعثِ بعد الموتِ

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الفَرْش والبَسْط:

الكلمتان تَشْتَرِكان في اللُّغة على دلالةِ التَّمهيد والإعداد على وجه الأرض، إلّا أنَّ القرآن الكريم يُفْرِدُ لكلٍّ منهما استعمالًا دقيقًا يخدم السّياق البلاغيَّ والمعنويَّ، وأمّا الجامع الدَّلاليُّ بينَهُما؛ فهو تهيئة الأرض وتمهيدُها للإنسان للعيش، والتَّحرُّك، والقرار، فالفَرْش يدلُّ على القرار والسُّكون والمَعاش، والبَسْط يدلُّ على الامتداد والتَّيسير والحركة[4].

الفرشُ تمهيدٌ واستقرار، والبَسْطُ امتدادٌ وتوسعَةٌ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 18.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 391.
(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 549.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (فرش/ بسط).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع والخمسون،
سورة الحُجُرَات من الآية 15 إلى سورة الطُّور الآية 24
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السابع والخمسون، سورة الحُجُرَات من الآية 15 إلى سورة الطُّور الآية 24
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 57 ، 802 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-650-27-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 57 : المجلد السابع والخمسون، سورة الحُجُرَات من الآية 15 إلى سورة الطُّور الآية 24.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-650-27-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4331956 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"